

تجليات القيم الإنسانية في مقاصد القرآن في الكتابات المعاصرة Manifestations of human values in the objectives of the Qur'an in contemporary writings

±

فيصل بوطالبي¹

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

faycelislam@gmail.com

د. عبد العزيز ثابت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

tabet.rahim1985@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/02/17 القبول 2021/06/18 النشر على الخط 2021/10/30

Received 17/02/2021 Accepted 18/06/2021 Published online 30/10/2021

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز العلاقة التي يمكن أن يستشفها المتدبر للقرآن الكريم والمزاوّل لتفهمه وتفهمه بين القيم الإنسانية وعلوم القرآن. وهذا ببيان المعاني العلمية لكل من القيم ومقاصد القرآن ووصف جهود العلماء والباحثين في مجال الدراسات القرآنية في إظهار شيء من علوم القرآن التي لها علاقة بالقيم من خلال تفعيل دور العلوم الاجتماعية كأداة من أدوات المفسر للقرآن الكريم، وصولاً إلى توضيح القيم الإنسانية الكبرى التي تضمنتها مختلف المقاصد القرآنية المنصوص عليها في الكتب والأبحاث.

الكلمات المفتاحية: القيم الإنسانية، مقاصد القرآن، التفسير.

Abstract:

This study aims to highlight the relationship that can be discerned the noble Qur'an and the practitioner of understanding it, and between human values. This is through the scientific meaning of each of the values and objectives of the Qur'an and a description of the effort of scholars and researchers in the field of Qur'anic studies to show something from the Qur'an sciences that have a relationship to human values. This later is achieved by activating the role of social sciences as one of the tools of the interpreter of the holy Quran and leading to clarification of the major human values that are included in various Qur'anic objectives stated in exegesis, books and various Qur'anic studies.

Keywords: Human values, objectives of the Qur'an , interpretation.

¹ المؤلف المرسل: فيصل بوطالبي البريد الإلكتروني: faycelislam@gmail.com

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من بعثه الله بهذا الدين القويم وعلى آله وصحبه جعلهم الله خير أمة أخرجت للناس يأملون بالمعروف وينهون المنكر، وسلم تسليماً مزيداً إلى يوم الدين.

أما بعد:

الإسلام بأصوله التشريعية من الكتاب والسنة وما تولد منهما يمثل رحمة وكرامة وإعزازاً ورفعاً للإنسان على جميع مستويات الحياة الفردية والاجتماعية، بالشرعية الربانية تحفظ أديان الناس وأبدانهم وأموالهم وأعراضهم، وبها يكونون متعارفين متآلفين، يغشاهم السلم والأمان عند الوفاق، ويحكم بينهم العدل والإحسان عند التنازع والشقاق، وفي شريعة القرآن المنزل من عند الرحمن إلى النبي العدنان الحل لكل عويص مما استجد على أرباب علم الاجتماع من مشكلات الحياة -لمن عقل وتدبر-، وفيها حفظ لكل حق من حقوق الإنسان الذي هو على تواصل مع المجتمع الإسلامي من مسلمين وغيرهم، وإن من حق هذه الشريعة القرآنية الربانية علينا أن نعلم أحكامها ونشيع محاسنها بين الناس، ونوضح مقاصدها وأسرارها، ونزيل ما علق بها مما هو ليس منها.

وعلى هذا النسق وفي هذا الباب جاء موضوع هذا البحث: (القيم الإنسانية وتحليلاتها في كتابات المعاصرين). ولم أر من تناول هذا المبحث على وجه الخصوص، وإن كان من المحتمل جداً أن باحثين معاصرين أو علماء ممن درسوا القرآن ذكروا هذا غير أنني لم أطلع عليه. وليس قصدي هنا الإمام بجميع جوانب الموضوع أو الإجابة عن جميع الإشكالات المتعلقة به، وإنما هي إشارات وأمثلة، قد يعثرها قصور وإن كنت أزعم أنها سالمة من التقصير.

1. تمهيد: التعريف بالقيم ومقاصد القرآن.

تضمن هذا البحث متغيرين علميين أساسيين؛ الأول هو (القيم الإنسانية) مصطلح يحمل دلالات متعددة ضمن إطار العلوم الاجتماعية يظهر فيه المصطلح ذا دلالة متغيرة بحسب المجال العلمي الذي يتناول فيه فالقيمة عند علماء الاقتصاد غير القيمة عند علماء الأخلاق ... ، والثاني من المتغيرين (مقاصد القرآن) وهو مصطلح يحمل دلالاته الواسعة ضمن حقل الدراسات القرآنية المعاصرة وعلم المقاصد في حد ذاته علم حديث النشأة في ميدان العلوم الإسلامية بمختلف فروعها وشعبها. فلا غرابة إذا أن تكون العلاقة بين هذين المجالين العلميين تظهر بمظهر يعتريه كثير من الغموض والالتباس، وليبيان ما بين المصطلحين -الأول في مجال علمي اجتماعي إنساني والآخر في مجال علمي اجتماعي إسلامي من تأثيرا وتأثر أثرت أولاً بيان معنى المصطلحين كل في مجاله العلمي المعرفي:

أولاً: القيم الإنسانية.

و«القيم» جمع مفردة قيمة ويرجع أصل اشتقاقه إلى مادة [ق و م]، وهو أصل يرجع إلى معنيين: الأول الجماعة من الناس والثاني الانتصاب والعزم⁽¹⁾، ولهذا المدلول الأخير أثر في استعمال هذا اللفظ استعمالاً دلالياً في العلوم الإنسانية، وخاصة إذا أضفنا إلى المعاني الأولى معنى دلالاته على الثمنية والثبات والدوام⁽²⁾.

أما من الناحية الاصطلاحية؛ فموضوع «القيم» مما اختلفت فيه الأفهام، وتشعبت فيه الأقوال، واضطربت في حده التعاريف، حتى قيل أن مصطلح (القيم الإنسانية): لا يمكن الإحاطة بكل ما يراد به في مجال العلوم الإنسانية، «وإنما ينشأ غموض معنى القيمة عن لا ماديتها، فالقيمة شرط كل وجود، ولكنها ليست بذاتها وجوداً، إنها تبدو لنا في ثوب نرغب فيه، أو هدف نبتغي نواله، أو توازن نسعى إلى تحقيقه»⁽³⁾ فالقيم في حقيقتها عرض يتجلى في سلوكيات الفرد والجماعة وتظهرهما في أسمى ما يمكن تصوره من الكمال البشري والحضاري، وأما في الاصطلاح الشرعي الإسلامي «القيم الإنسانية» لفظ حادث لم يأت في الكتاب ولا في السنة ولم ينص عليه بهذا اللفظ أئمة الإسلام السابقين، ولكن الأصل اللغوي لهذا المصطلح وكذلك أصل مدلوله الأدبي والعلمي عند من يتكلم به -من أهل الاختصاص- موجودان في القرآن الكريم في غير ما موضع، ولا غرابة في هذا، فإن كل ما كان علماً يُقَوِّم الإنسان ويهديه سبل الخير فلا بد أن يكون في ميراث محمد ﷺ مما هو مثله بل ويفوقه من جهتي التناسق المعرفي وشرف المقاصد.

وتلخيصاً للكلام بما يناسب المقام نقول أن القيم في القرآن الحكيم يمكن دراستها على مستويين؛ المستوى الأول وهو المستوى اللفظي الموضوعي والمستوى الآخر وهو المستوى الموضوعي الإجمالي، والثاني من المستويين هو المقصود بالبحث في هذا الموضوع.

مادة [ق و م] جذر تعددت أمثله التصريفية والاشتقاقية في القرآن الكريم، ويفوقها تعدداً الأوجه الدلالية التي يساق لها المثال التصريفي الواحد؛ فأوصلها بعض الباحثين إلى ثلاثين وجهاً⁽⁴⁾، لكني اخترت منها ما يناسب في معناه المعنى الاصطلاحي الذي أعالجه، منها لا على وجه الحصر: ما أتى في قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} [سورة البينة:5]، فالقيمة هنا اسم للأمة القائمة بالقسط المشار إليهم بقوله تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ} [سورة النساء:135] ومنها ما يأتي بمعنى تقويم الشيء: أي تثقيفه، قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:4]. وذلك إشارة إلى ما خص به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم، وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما في هذا العالم. ويأتي بمعنى المستقيم؛ قال تعالى: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:161].⁽⁵⁾ أما من جهة موضوع القيم في القرآن الكريم، فالذي يظهر لي -والله أعلم- أن القيم تمثل ثمرة يجتنيها القارئ المتدبر للقرآن الكريم والمطلع على

(1) ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان، 1399هـ - 1979م، ج 5 ص 43.

(2) البليش وآخرون، "القاموس الجديد"، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر، 1979م، ص 871.

(3) عادل عوا نقلا عن: الربيع ميمون، "نظرية القيم في الفكر المعاصر"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م، ص 24.

(4) سليمان القرعاوي، "الموسوعة القرآنية في الوجوه والنظائر"، مكتبة الجديدي، المملكة العربية السعودية، ط 1، ج 2 ص 742-748.

(5) ينظر: سليمان القرعاوي، المرجع السابق، ج 2 ص 742-748.

تفاسيره، فيلاحظ فيه وفي تفاسيره ما يبرز محاسن الدين ووجوه الجمال والكمال والجلال في الكتاب العزيز، وهذا الذي يحاول كل مفسر لكتاب الله جهده أن يبرزه للناس بما يرغبهم فيه علما وعملا وأدبا وسلوكا فلا غرابة أن يقال القرآن الكريم كتاب القيم والمثل العليا ودينه الذي يدعو إليه دين القيم.

ومن المصطلحات ذات الصلة بالقيم؛ مصطلحي المثل العليا ومصطلح الحقوق الإنسانية، والمثل العليا: المثل الأعلى بالمعنى الفلسفي هو ما يرضي العقل والعاطفة إرضاء كاملا⁽¹⁾، وهي تشترك مع القيم في كونهما يحاولان إبراز المعنى العميق لهذا الوجود الذي قد لا يسرنا حتى يصير أجمل في عيوننا وأجلى لعقولنا.⁽²⁾ والمثل العليا في الإسلام منها ما هو متعلق التشريع بحيث يكون النظام التشريعي جاريًا على أكمل الوجوه وأحسنها. ومنها ما هو متعلق بأعمال وأخلاق العاملين.⁽³⁾ فنسبة الاشتراك بين القيم والمثل واضحة جلية لمن تدبر حدود المصطلحين. أما المصطلح الثاني فهو الحقوق الإنسانية: هي المبادئ التي تضمنتها وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي أقرتها الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة سنة 1948م، والتي نصت فيها على حقوق البشر الأساسية بالنظر إلى العلاقات الواجب مراعاتها بين حقوق الإنسان والنظام الاجتماعي أو الدولي منها المادة الأولى: يولد البشر كلهم أحرارًا متساوين في الكرامة وفي الحقوق وقد وهبوا عقلا وضميرا وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء...⁽⁴⁾

ثانيا: مقاصد القرآن الكريم.

المقصد مصدر ميمي مشتق من (قصد)، والقصد: إتيان الشيء والأتمُّ إليه واستقامة الطريق وسهولته والاعتدال والتوسط والعدل...⁽⁵⁾ ومن الناحية الاصطلاحية فقد مرَّ علم المقاصد بما يمر به أي علم من علوم الشرع النظرية بمراحل ثلاثة: بدءا من مرحلة الوجود والنشأة إلى مرحلة الاهتمام والإبراز وانتهاء بمرحلة النضج والوضوح؛ وتنافس أهل العلم والباحثون في مختلف مراحل تطور هذا الفن في وضع أسسه وحدوده وتطبيقاته في مؤلفات كثيرة، خاصة بعد الثورة العلمية التي أحدثها بروز كتاب الموافقات للإمام الشاطبي رحمه الله، وهذا ما يجعلني أكتفي بسرد حد واحد من حدود أهل العلم لهذا الفن فأقول: المقاصد «هي العلم بالمعاني والحكم التي أرادها الله عز وجل من التشريعات عموما وخصوصا لتحقيق عبوديته وإصلاح العباد في المعاش والمعاد تأصيلا وتحصيلا»⁽⁶⁾، وهذا التعريف وإن كان خاصا بمقاصد الشريعة إلا أن بينه وبين مقاصد القرآن ارتباطا؛ إذ أن بينهما عموم وخصوص، فالقرآن أول مصادر التشريع والشريعة جزء من موضوعات القرآن، وعليه يمكن تعديل الحد السابق فنقول إن مقاصد القرآن: هي العلم بالمعاني والحكم التي أرادها الله عز وجل من إنزال القرآن لتحقيق عبوديته وإصلاح العباد في المعاش والمعاد

(1) جميل صليبا، "المعجم الفلسفي"، دار الكتاب اللبناني-مكتبة المدرسة، لبنان، 1982م، ج2 ص340.

(2) الربيع ميمون، "نظرية القيم في الفكر المعاصر"، مرجع سابق، ص16

(3) ينظر: محمد الأمين الشنقيطي، "المثل العليا في الإسلام/ محاضرات الشنقيطي"، دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، 1441 هـ - 2010م، ط5، ص129-130.

(4) فردينان توتل، "المنجد في الأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، دت، ط17، ص29.

(5) ينظر: ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، مرجع سابق (95/5)، وسليمان الرحيلي، "الطريق القاصد إلى علم المقاصد"، دار الميراث النبوي، الجزائر، 1437هـ-2016م، ص14-19.

(6) سليمان الرحيلي، "الطريق القاصد إلى علم المقاصد"، مرجع سابق، ص32.

تأصيلاً وتحصيلاً، أو كما عرفها به بعض الباحثين فقال: «مقاصد القرآن هي التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد»⁽¹⁾ ويمكن تقسيم هذه المقاصد إلى ثلاثة أقسام هي:⁽²⁾

- المقاصد العامة: هي الغايات الملحوظة في جميع القرآن أو معظمه. مثلها إصلاح الاعتقاد وتهذيب الأخلاق.
- المقاصد الخاصة: هي الغايات الملحوظة في أنواع خاصة من تشريع القرآن. مثل الإصلاح العائلي والأسري.
- المقاصد الجزئية: هي الغايات الملحوظة في آحاد أحكام القرآن.

ثالثاً: إشكالية البحث

القيم بالصورة التي سبق بيانها، هي جمل وفقرات وأفكار منشورة في تضاعيف التفاسير، وهذه الجمل لا ترتبط فيما بينها بوحدة موضوعية تجعلها تنتظم في سلك موضوع أدبي أو علمي اجتماعي واحد، وإذا اطلعت عليها في التفاسير والمؤلفات فأنت تطلع عليها في غير وحدتها المتكاملة ولا بنائها المعرفي التام المتراص؛ لا يظهر فيها أي تسلسل في الأفكار، ولا تناسق في الموضوع يبرز من خلاله أهمية القرآن في تعزيز القيم الإنسانية. وعليه تكمن المشكلة الأساس في هذا البحث:

ماهي دوافع الكتابة في القيم الإنسانية القرآنية؟ وما مدى ارتباط القيم الإنسانية بالقرآن الكريم؟ وما مدى حاجة المجتمعات الإنسانية اليوم للقيم القرآنية؟ وهل ساهم العلماء والباحثون في مجال الدراسات القرآنية في إثراء الساحة الثقافية الإسلامية والعالمية بالقيم القرآنية تأصيلاً وتصحيحاً وتكميلاً؟ وماهي القيم العليا التي تضمنها القرآن الكريم؟

واعتمدت أسلوب الاستقراء التحليلي بشأن تتبع تجليات القيم الإنسانية من جهة التنظير والتطبيق في كتابات المعتنين بالدراسات القرآنية. وكانت عناصر البحث كالتالي:

تمهيد: التعريف بالقيم ومقاصد القرآن.

المبحث الأول: القيم الإنسانية في مقاصد القرآن.

المطلب الأول: أسباب دراسة القيم الإنسانية القرآنية.

المطلب الثاني: بين القيم الإنسانية ومقاصد القرآن .

المبحث الثاني: مقامات الكتابة في القيم الإنسانية عند الكتاب.

المطلب الأول: مقام الضرورة الشرعية.

المطلب الثاني: مقام الضرورة العلمية.

المبحث الثالث: القيم العليا التي جاء بها القرآن الكريم.

المطلب الأول: القيم في مقصد صلاح الفرد.

المطلب الثاني: القيم في مقصد صلاح المجتمع.

المطلب الثالث: القيم في مقصد صلاح العمران.

(1) عبد الكريم حامدي، "مقاصد القرآن من تشريع الأحكام"، دار ابن حزم، لبنان، 1429هـ - 2008م، ط1، ص29.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص29-30.

الخاتمة

2. المبحث الأول: القيم الانسانية في مقاصد القرآن.

لم تزل الخيرية باقية في هذه الأمة ما دامت سوق الدعوة قائمة فيها، والدعوة إنما هي محصورة في تحقيق الهداية إلى الصراط المستقيم أو الهداية في الصراط المستقيم. فالأولى من الدعوتين متمثلة في بيان محاسن الدين ومزاياه ... وأما الدعوة في الصراط فهي للذين اهتدوا ليزدادوا هدى على هدى من محاسن الأخلاق وكريم الشيم، وهذا كله إمامه القرآن هو الممد الأول للساحة الثقافية الإسلامية بأصول ذلك وفروعه، وفيما يلي بيان لذلك:

1.2 . المطلب الأول: أسباب دراسة القيم الإنسانية القرآنية

مسوغات وأهداف التأليف في تفسير القرآن الكريم عند المحدثين كثيرة جداً؛ أهمها الذي يمثل حجر الأساس المتفق عليه بين الكتاب هو تجاوز نمط التأليف التقليدي الذي يعتمد في بنيته التأليفية على المباحث اللغوية واللفظية، ويتعمد تحاشي أسلوب الجدل وسرد الخلافات المتنوعة سواء ما تعلق منها بالفقه أو علم الكلام أو علوم اللغة...؛ إلى تحقيق معنى الاهتمام بالقرآن، وذلك من خلال إبراز المقصد الأساس من نزول القرآن الكريم كشجرة طيبة تولدت عنها ثمار يانعة في شتى الميادين، ومما تميزت به التفاسير المعاصرة هو امتزاج التفسير بالعلوم الأدبية والإنسانية وحتى بعض العلوم الكونية، والحامل على هذا المزج هو أمران اثنان:

الأمر الأول: أن كثير من هذه العلوم من معين علوم القرآن كعلم الأخلاق، وبعض من هذه العلوم هي ذات علاقة بعلم التفسير بحيث تزيد المفسر قدرة على استنباط الهدايات، وتظهر الكثير من وجوه إعجاز القرآن الكريم خاصة ما تعلق منها بجانب مقاصد التشريع والمثل العليا للمجتمع كالحكمة.⁽¹⁾

الأمر الثاني: وهو أمر خارجي تفرضه ضرورة التواصل الثقافي بين المفسر ومن يقرأ له، وذلك لكون الله تبارك وتعالى جعل الخيرية في هذه الأمة ما كانت سوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائمة فيهم {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة آل عمران: 110]. ولا شك أن ميدان القيم بكل أشكالها ميدان لا بد للمفسرين على وجه الخصوص أن يظهرها فيه ما للقرآن من مزايا حقة تجعله المرجع الرائد في هذه الفلسفة والمفسر «لا يفسر لنفسه إنما يفسر للناس فكان من الواجب أن يساير أفكارهم ويشرح ألفاظ القرآن في الظواهر الطبيعية والعلمية وسنن الله الكونية وقوانين الاجتماع والسياسة وقواعد الاقتصاد والأخلاق وسائر التشريعات الشخصية والمدنية والجنائية والحربية»⁽²⁾

من المنطلق السابق اعتنى المحدثون من الكتّاب المسلمين بدراسة القرآن الكريم بغية الاستفادة من تعاليمه والاهتداء بإرشاداته وداعين إلى التأمل في محاسنه ومزاياه ليزداد الذين آمنوا إيماناً وليحيى من في قلبه وهن..، ومتسلحين في ذلك بما أتيح لهم من «التأمل في سنن الله في الكائنات ودراسة ما تنتجه العلوم الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها»⁽³⁾ وذلك بغية الخروج بالمجتمع المسلم

(1) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1984م، ج1 ص45.

(2) عبد العظيم الزرقاني، "مناهل العرفان"، دار الحديث، مصر، 1438هـ-2017م، ص456.

(3) البشير الإبراهيمي، "الآثار"، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1997م، ج2 ص250.

خاصة والمجتمع الإنساني عامة من مآزق أفرزها الانغماس في شهوات التطور الحضاري المادي، وذُكر فيما قالوه ودونوه العديد من القيم والمثل الإنسانية التي اهتم القرآن الكريم بإشاعتها وتوطيئها في نفوس المسلمين بغية تحقيق الصلاح الأمثل للمجتمع الإنساني. وما صنيع المفسرين هذا؛ بتكلف منهم، وهو أن جعلوا قضايا فلسفية من صلب مواضيع القرآن، ولا تحميل للقرآن ما لا يحتمله من المعاني والعلوم، وإنما هو إبراز منهم لأهم خصيصة من خصائص القرآن الكريم وهي هداية القرآن لأقوم السبل في كل أمر، فـ { هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ } [سورة الإسراء: 9]. وقد «أخبر الله في عدة آيات أن القرآن هدي للناس، وأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويهدي للتي هي أقوم، فكل أمر فيه خير وصلاح ونفع فالقرآن يهدي إليه، ويرشد العباد إليه.»⁽¹⁾، فمن ذلك قوله تعالى: { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [سورة طه: 50]، «أي أعطى كل مخلوق خلقته اللاتقة به، المناسبة لحاله، ثم بعد هذا الخلق هدى كل مخلوق لما خلق له، وهذا يشمل أنواع الهدايات كلها: فالحیوانات غیر الإنسان هدى كل صنف منه إلى ما يناسبه مما لا تتم حياته الحيوانية إلا به ... وأما الإنسان فهده الله هذه الهداية؛ واختصه بهدايات آخر استكمل بها دينه ودنياه إذا استعملها كلها، وأما إذا استعملها في غير ما خلقت له فهذا قد استحب واختار العمى على الهدى.»⁽²⁾ فالحمد لله الذي أرسل رسوله رحمة للعالمين وأنزل كتابه وجعل فيه الهدى والشفاء ... ولا يخفى على الباحث في ميدان الفلسفة الأخلاقية مشكلات نظرية القيم التي يسعى كل واحد من مختلف الملل إلى إيجاد حل لها وفق ما تمليه عليه مرجعيته الدينية أو العلمية ولعلي أبرز الدور القرآني الذي يمكن أن يضاف إلى هذا الميدان.

2.2 المطلب الثاني: بين القيم الإنسانية ومقاصد القرآن

يعلن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره بكل صراحة أن الإخلال بقواعد القرآن والتعدي على حدوده في تنظيم المجتمعات البشرية يؤدي إلى العود على القيم الإنسانية بالإبطال والتخريب⁽³⁾، ولم أقف على من جعل القيم الإنسانية مقصدا من مقاصد القرآن الصريحة الواضحة الجلية في أقسام هذه المقاصد؛ سوى ما صرح به بعض الباحثين بقوله: «تفسير القيم في الإسلام هو تفسير رباني جاء به كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... لذا كان تفسير القيم مقصدا من مقاصد القرآن»⁽⁴⁾، وهذا يجعلنا نتساءل عن هذا المقصد الجديد هل هو مقصد كلي منفصل عن المقاصد الأخرى؟ أو أنه مقصد جزئي تابع لغيره من المقاصد؟ ويظهر من تتبع كثير من مفردات هذا المقصد ما يجعلنا نميل إلى أنها مقاصد تحصيلية -وليست تأصيلية-، بحيث تندرج كل مفردة من مفرداته تحت مقصد كلي تأصيلي آخر. والله أعلم.

(1) عبد الرحمن السعدي، "الدلائل القرآنية /مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي"، الميمان للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية

السعودية، 1432هـ - 2011م، ط1، ج3 ص484

(2) المرجع نفسه ج3 ص483.

(3) ينظر: محمد الأمين الشنقيطي، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، 1415هـ - 1995م، ج3 ص22 وما بعدها.

(4) أشرف محمد زيدان، "واقع القيم الإنسانية ومستقبلها وفق حقائق القرآن الكريم"، مجلة الجامعة العراقية، العدد: 3، المجلد 28، السنة: 2012م، رابط النسخة الإلكترونية (موقع المجلة):

<https://www.iasj.net/iasj?func=fulltext&aId=96338>

يشارك كل من العلم المتعلق بالقيم الإنسانية ومباحث علم مقاصد القرآن في أن لكل منهما غايات في ذاتهما يصبو الباحث إلى رسم طريق يصل بها إلى تلك الغايات، ففلسفة القيم: «هي البحث عن الموجود من حيث هو مرغوب فيه لذاته»⁽¹⁾، ونظيرها المقاصد القرآنية تبحث في غايات التنزيل من أجل الارتقاء بالصنف البشري إلى درجات الكمال ف«وظيفة القرآن تقرير أصول الحق وإنارة مسالك الحياة وتوجيه العقول نحو السعادتين وهدايتها لكل كمال»⁽²⁾، فالمغزى الذي يرمي كل مشغل بالعلمين هو الوصول إلى الإصلاح الأمثل وتحقيق الصلاح الأكمل للمجتمع الانساني، فالإصلاح والوصول إلى مرتبة الصلاح المطلق هو الدافع والهدف لكل باحث في المجالين، وفي هذا الصدد جعل كثير ممن يشتغلون في حقل الثقافة الإسلامية؛ القرآن الكريم الحجر الأساس في البناء القيمي للمجتمع الإسلامي، بل صرح الصديق صالح رمضان قائلاً: «ولا نعلم شيئاً يصلح الانسان مهما تطور وترقى كالقرآن الكريم لأنه نظام الله خالق الانسان وعالم ما يخفي وما يعلن ومركب الطبائع وعالم ما يصلح وما يفسد»⁽³⁾. ولمعترض أن يقول: وماذا ترك لنا جهابذة الفلاسفة والباحثون في العلوم الإنسانية بمختلف شعبها وتخصصاتها لنبحثه نحن؟! - ونحن أبعد الناس عن المدنية الحديثة، فنقول جواباً على هذا أن هذا الموقف موقف فيه قصور في النظر وتقصير في البحث، وغمط لقدرة القرآن وجهود مفسريه، ويظهر هذا عدة أوجه موضحة في العناصر الموالية:

أولاً: الحضارة الغربية مادية وليست عمدة - وحدها - في السمو البشري

الحضارة الغربية مصطبغة بالصبغة المادية بدليل بيان معاجمها الفلسفية لمفهوم القيم الإنسانية نفسه حيث جاء في بعضها تعريف للقيم بأنها «صفات الموضوعات والظواهر المادية للوعي الاجتماعي التي تميز أهميتها ولطبقة ما ولإنسان ما والأشياء المادية تمثل أنواع من القيم لأنها موضوعة لمصالح بشرية معينة»⁽⁴⁾؛ حيث يلاحظ من التعريف أن موضوع القيم وكنهها عندهم في الظواهر المادية أما غير ذلك فصفات للظواهر فقط، كما جعل معيار قياس القيم هو الرفاهية المادية دون غيرها، وهذا لاشك قصور كبير في تصور القيم، فرب فقير معدم يتمتع بقيم لا يحوزها صاحب التقدم المادي، وهذا مشاهد لا يجوز أن يتجادل فيه اثنان لهما نظر وإطلاع لما يجري في عمق المجتمعات الإنسانية اليوم.

وهذا لا يعني أننا نجمع بين تأخر عن ركبها الحضاري وكبر ممقوت. حيث نجم ونمقت ما في الحضارة الغربية بكل ما فيها - وفيها رقي وكثير من القيم التي ننافسهم فيها وودنا أنها فينا على خير ما هي فيهم -، لكن!! الرقي الحضاري المادي مظهر من مظاهر الرقي الإنساني وليس وحده معيار الرفعة والسيادة الإنسانية، فلا نغض الطرف عما ننكره وعن ما نحن به أجدر وأحق ونعلن صراحة أنه «من الحري بالتنبيه والملاحظة أن المدنية الأوروبية التي سحرت النفوس وصارت حديث الناس في الأندية والمجامع مبنية على أسس وأصول كلها منصوص عليها في كتاب الله»⁽⁵⁾ بل إن القرآن الكريم فاق جميع ما قرره المؤلفون من أدباء وفلاسفة ومشرفة... بمزية،

(1) جميل صليبا، "المعجم الفلسفي"، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1982م، ج2 ص214.

(2) محمد الصالح صديق، "مقاصد القرآن"، دار البعث، قسنطينة - الجزائر، 1403هـ - 1982م، ص272.

(3) المرجع نفسه، صفحة التعريف بالكتاب.

(4) رونتال وآخرون، "الموسوعة الفلسفية"، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للنشر والتوزيع، لبنان، ص381.

(5) محمد الصالح رمضان، "مقاصد القرآن"، مرجع سابق، ص227.

هي الكشف عن وجوه الخلل في مقرراتهم وطرق الإصلاح لها. ولا يملكون مع هذا إلا الإقرار بأنه كتاب منزل من عند اللطيف الخبير، « هذا هو التنزيل الحكيم تقرأه ... وإذا روح الإصلاح فيه قوي قاهر ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه فبينا تراه يصلح ما أفسده الفلاسفة بفلسفتهم إذ تراه يهدم ما تردى فيه الوثنيون بشركهم وبينا تراه يصحح ما حرفه أهل الأديان في دياناتهم إذ تراه يقدم للإنسانية مزيجا صالحا من عقيدة راشدة ترفع همه العبد وعبادة قومية تظهر نفس الإنسان وأخلاق عالية تؤهل المرء لأن يكون خليفة الله في الأرض وأحكام شخصية ومدنية واجتماعية تكفل حماية المجتمع من الفوضى والفساد وتضمن له حياة الطمأنينة والنظام والسلام والسعادة. »⁽¹⁾.

إذن؛ اتجاهاً عكسيان يميزان مسير البشرية في العصر الحديث؛ فالإنسان يغتبط بثوبة حضارية تمس الجانب المادي للعالم «وتؤتي من الثمار البانعة بتسخير قوى الطبيعة للإنسان ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة، وكأن أقطارها بيوت لهذه المدينة»⁽²⁾؛ وهذا هو الاتجاه الأول، أما الاتجاه الثاني: يتمثل في «أن البشر يرجعون القهقري في الآداب والفضائل على نسبة عكسية مطردة لارتقائهم في العلوم المادية واستمتاعهم بثمراتها، فهم يزدادون إسرافاً في الرذائل، وجراً على اقتراف الجرائم، وافتناناً في الشهوات البهيمية، ونقض ميثاق الزوجية ...»⁽³⁾. بل وليس هذا فقط! فإن الحضارة الغربية لا زالت تتسم بالعقلية العدوانية اتجاه مختلف الأجناس البشرية المختلفة وخصوصاً المسلمين منهم. ويترب على المقدمة السالفة أنه ولأجل الخروج بالبشرية من المأزق الذي تورطت فيه بسبب الانغماس في الحياة المادية المصبوغة بالصبغة الإلحادية المظلمة:

■ وجوب التسليم بـ: «أنّ الفنون والعلوم البشرية المحضة غير كافية لجعل البشر سعداء في حياتهم الدنيا، فضلاً عن سعادتهم في الحياة الآخرة، وإنما تتم السعادة لهم بمهذبة الدين، فالإنسان مدني الطبع، ومتدين بالطبع، أو بالفطرة كما يقول الإسلام.»⁽⁴⁾ ولهذا المذهب الفلسفي ما يعضده من آيات الذكر الحكيم إذا تأملنا قول الله تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [سورة الروم: 7]. مع قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة النحل: 97]. فقد جعل الله تبارك وتعالى الحياة الطيبة شيئاً يتعدى حدود الظواهر المادية إلى نور يجده العبد في الإيمان مع العمل الصالح.

■ أن القرآن الكريم وحده هو المتضمن لما فيه صلاح للبشرية وإصلاح لها لما فسد منها، وذلك أن جميع الديانات الأخرى قد وقفت عاجزة عن مواجهة المد الإلحادي إلى درجة جعلت عقلاء الغرب يتمنون أن يبعث في الإنسانية نبي جديد يخرج بها من ظلمات الجور إلى نور العدل، «بيد أن هؤلاء المفكرين لا يعرفون حقيقة دين القرآن، وهو الدين الإلهي العام»⁽⁵⁾، ولو عرفوا حقيقة القرآن من غير ما يشوب صورته من تشويه وتشويش، لأيقنوا بأنه هو المخلص للبشرية مما هي فيه، «فالإنسان عندما يتجرد من

(1) عبد العظيم الزرقاني، "مناهل العرفان"، مرجع سابق، ص 7.

(2) محمد رشيد رضا، "الوحي المحمدي"، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1426هـ-2005م، ص 7.

(3) المرجع نفسه، ص 8.

(4) المرجع نفسه، ص 8.

(5) محمد رشيد رضا، "الوحي المحمدي"، مرجع سابق، ص 8.

الأثرة و الهوى وينظر فيما جاء به القرآن الكريم من تعاليم وأحكام، وقوانين ونظم، لا يتردد في الحكم بأنه منهج كامل يجمع أوجه النشاط الإنساني في مختلف مجالات الحياة، وقوانين ونظم، لا يتردد في الحكم بأنه منهج كامل يجمع أوجه النشاط الإنساني في مختلف مجالات الحياة»⁽¹⁾. وهذا عينه الذي صرح به الأديب الإنجليزي برناردشو حيث قال: «إنني أحترم الدين الإسلامي غاية الاحترام لما فيه من القوة الحيوية ... فهو وحده الذي يظهر لي أنه يملك القوة المحولة التي تغير صورة الكون، ذلك أنه يوافق كل جيل ويتمشى مع مصلحة البشر في كل زمان... أنا على يقين أن دين محمد سيكون دين أوروبا في غد المستقبل كما أنه قد أخذ الأوروبيون يقبلونه من اليوم.»⁽²⁾ ولمعتزض أن يقول أن هذه المقدمة غير ملزمة بكون القرآن جدير بأن يخرج الإنسانية مما هي فيه غارقة فنقول جواباً:

ثانياً: دلالة التاريخ على علو قدر القرآن في الرقي بالقيم

نظرة -فاحصة موضوعية غير جاحدة للحق ولا معاندة له- في تاريخ البشرية عامة وتاريخ الإسلام خاصة تقرر إقراراً جازماً: «أن المجتمع الذي صنعه القرآن بمقاصده أفضل وأعظم مجتمعات عرفه التاريخ، وأن المدنية التي أسسها هذا المجتمع أرقى مدنية عرفت الإنسانية... حتى قال الفيلسوف الألماني نيتشه: "لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقريّة القديمة، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام، فقد ديسست بالأقدام تلك المدنية العظيمة؛ مدنية الأندلس، ولماذا؟، لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن غرائز شريفة، نعم من غرائز رجال !!، تلك المدنية لم تنكر الحياة... وما مدنيّتنا في القرن التاسع عشر إلا فقيرة ضعيفة وانية بجانب مدنية الإسلام في ذلك الوقت.»⁽³⁾، وأساس الحضارة العربية الإسلامية هي قوة الروح وصلاح التفكير الناجم عن عقائد الإسلام الحقّة وشرائعه العادلة، فالعربي المسلم لم يكن سياسياً ولا إدارياً ولا فنياً ولا صاحب نظريات علمية وقانونية كما هو شأن أصحاب الإمارات من الروم والفرس، وإنما الذي عنده سور من القرآن وشيء من هدي النبوة جعلناه يصلح من تلك الولايات -التي انتزعها من الروم والفرس- فسادها ويحفظ أنفسها وأموالها ويقيم العدالة الإلهية فيها، بل وشيد على أساس ذلك أعظم حضارة، أطلق عليها بعضهم امبراطورية الإيمان.

وفي هذا الصدد يقول صاحب المنار: «هدى الله تعالى بهذا القرآن العرب، وهدى بدعوتهم إليه أعظم شعوب العجم، فكانوا به أئمة الأمم، فبالاهتداء به قهروا أعظم دول الأرض المجاورة لهم ... ثم فتحو الكثير من ممالك الشرق والغرب حتى استولوا على بعض بلاد أوربة، وألفوا فيها دولة عربية كانت زينة الأرض في العلوم والفنون والحضارة وال عمران ... وإنما كانوا يفضلون أعداءهم بشيء واحد، وهو صلاح أرواحهم الذي تبعه صلاح أعمالهم، والروح البشري أعظم قوى هذه الأرض، سخر الله تعالى له سائر قواها ومادتها كما قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ} [سورة البقرة: 29]، {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

(1) محمد الصالح صديق، "مقاصد القرآن"، مرجع سابق، ص42.

(2) نقلاً عن: مجلة السنة المحمدية، العدد: 05، يوم 08 ماي 1933م، ص5.

(3) محمد الصالح صديق، "مقاصد القرآن"، مرجع سابق، ص42.

الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الجاثية:13].⁽¹⁾ فالتاريخ شاهد على الهوية ومخزن للمقومات ومحفز على العمل وقانون سنني يعصم عن الخطأ - بإذن الله - لمن عقله وتدبر.

ثالثا: دلالة العقل والوجدان على الاعتصام بالقرآن

القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجعل الله الحجة في أنه من عنده؛ فيه، فتحدى العالمين على أن يأتوا بمثله أو بما هو من مثله فقال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة البقرة:23]، وكان مبدأ التحدي من أول سورة نزلت ولا يزال التحدي حجة من حجج الله على خلقه إلى يوم القيامة.

وإذا كان ذلك كذلك فالله خالق الكون وسننه وهو القادر وحده على أن يسن قوانينه الشرعية التي تحفظه من الفساد و الطغيان البشري {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [سورة الملك:14]، وعليه ف«ليس للإنسانية إلا العودة إلى الله خالق النفوس، وعالم ما تكن وما تبدي مركب الطبائع، وعالم ما يصلح وما يفسد... ليس لها إلا الفرار إلى كتاب الله تستقر في حضنه وتطمئن في رحابه وتستروح في ظله ... ليس للإنسان إن أراد الاهتداء والاستشفاء والاسترواح، إلا مقاصد القرآن»⁽²⁾

وخلاصة الخلاصة في هذا الباب أن المجتمع الإنساني اليوم أصبح في أمس الحاجة إلى الوحي الإلهي ليخرج به عما هو فيه من بغي و جور وفساد ... وما أجمل ما سطرته أنامل الشيخ البشير الإبراهيمي في هذا الصدد: «وما أشد شبه الإنسانية اليوم بالإنسانية قبيل نزول القرآن في جفاف العواطف وضراوة الغرائز وتحكم الأهواء والتباس السبل وتحكيم القوة وتغول الوثنية المالية. وما أحوج الإنسانية اليوم إلى القرآن وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال وقد عجز العقل عن هدايتها وحده كما عجز قديماً عن هدايتها لولا تأييد الله له بالأمداد السماوية من الوحي الذي يقوي ضعفه إذا أدركه الوهن ويصلح خطاه إذا احتل ميزانه»⁽³⁾. ويبين تدهور القيم في المجتمعات بمختلف أطرافها والملل التي تنتمي إليها بعد الحرب العالمية الثانية تصريح ألبرت أينشتاين علم الفيزياء النووية الشهير بقوله: لقد ربحنا الحرب وخسرنا السلام، وكأنه ينذر العالم أجمع بضياع واحدة من أكبر القيم التي تضمن التعايش بين بني الإنسان، والقيم عقد واحد إذا انفرط منه شيء تتابع الباقي في التناثر شذر مذر، وهذا ما أبرز فلسفة القيم كواحدة من الفلسفات التي يجب تفعيل دورها في المجتمعات اليوم والبحث عن الرأي الأسد في الإجابة على كل مشكلاتها، «ومن تصفح القرآن بكامل الإمعان ونظر بإنصاف في تعاليم الإسلام رأى هذا الدين الخالد لا يجد بابا للخير في الحياتين إلا ويدعو لفتحته ويرغب في ولوجه ولا بابا للشر دنيا وأخرى إلا ويدعو لإغلاقه ويرهب من فتحه وولوجه. وما أسعد من انتظم في سلوكه وعمل بأحكامه ولم يجد قيد أمثلة عن جادته فذلك حقا هو الفائز المنتصر»⁽⁴⁾ فالفطرة والقرآن سيان في هداية الانسان لشريعة الرحمن، غير أن الفطرة - وإن سلمت من التغيير والتشويه والتدليس - لا تكفي وحدها، لكن حسبها أنها تدل على القرآن وتؤيده وتشهد له.

(1) محمد رشيد رضا، "تفسير المنار"، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1990م، ج1 ص6.

(2) محمد الصالح صديق، "مقاصد القرآن"، مرجع سابق، ص45.

(3) محمد البشير الإبراهيمي، "الآثار"، مرجع سابق، ج2 ص249.

(4) محمد الصالح رمضان، "مقاصد القرآن"، مرجع سابق، ص228.

3. المبحث الثاني: مقامات الكتابة في القيم الإنسانية عند الكتاب

يوضح هذا الوجه كون مصطلح "القيم الإنسانية" بحدوده الفلسفية أمر حادث مستجد في الأوساط العلمية عامة وفي الساحة الثقافية الإسلامية خاصة وفي حقل التفسير القرآني المعاصر على وجه أخص، لذا فإن أئمة الدين والباحثين في الشأن الإسلامي لهم معه عدة مقامات ثبتت بتتبع كتب وكتابات في هذا الشأن، نجلها في أربعة مقامات هي:

1.3 المطلب الأول: مقام الضرورة الشرعية.

من لوازم العبودية لله تبارك وتعالى وكذا الأدب مع الله سبحانه وتعالى ألا نقدم على ما نزعناه أنه صلاح لنا في الدين والدنيا حتى ننظر فيه بمنظار الشرع الأغر، فما وافق أصول الدين ومقاصده أخذناه وما عداه فلا يخلو من تردده بين المعفو عنه والواجب تركه، وذلك مصداقا لقول الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة النساء: 83]، فهذه الآية تضمنت مما يناسب هذا المقام عدة فوائد منها:

- ترك العجلة في إشاعة كل ما طرأ على المجتمع من أمور مهمة سواء تعلق الأمر بما فيه أمن أو سرور أو بما هو دون ذلك، ومعلوم عند أهل الأصول أن المرجع في النوازل⁽¹⁾ هو كتاب الله تعالى كما قرر ذلك الإمام الشافعي رحمته الله عليه فقال: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، قال الله تبارك وتعالى {الرَّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [سورة إبراهيم: 1]، وقال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل: 44]، وقال: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [سورة النحل: 89]، وقال: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نُّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة الشورى: 52]». ⁽²⁾

- رد الأمر إلى الرسول ﷺ وسنته وإلى أولي الأمر من المؤمنين؛ وهم أهل الرأي والعلم والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، ومعلوم عند أهل الأصول أن النوازل لها أحكامها الخاصة إذ هي محل نظر الخاصة دون العامة، ففي قوله تعالى: {لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} «دليل لقاعدة أدبية وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يؤول من هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيُقدِّم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه؟» ⁽³⁾

(1) وجه كون القيم الإنسانية من النوازل في الساحة الثقافية الإسلامية بصفة عامة هو كونها تحمل معاني جميلة حديثة النشأة من جهة التنظير العلمي لها، وهذه القيم تمثل مقياسا للرقى والنضج الحضاري لدى مختلف الأمم ويحكم إليها القرآن من قبل خصومه أحيانا، ويستدل لها من القرآن من قبل أنصاره أحيانا أخرى، بحق أو بغير حق.

(2) الشافعي، "الرسالة"، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، مكتبة عباد الرحمن، مصر، 1435هـ-2015م، ط1، ص118.

(3) عب الرحمن السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، ت: عبد الرحمن اللويحي، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420هـ-2000م، ص190.

- كما يجب ملاحظة منة الله على المؤمنين بإنزال هذا الكتاب الذي فيه تبيان لكل شيء، فلولا لكان كلهم من أتباع الشيطان، ولو سلم أحد من اتباع الشيطان لم يسلم من اتباع الأهواء والرغبات أو اتباع ما دون ذلك من الخلل الواقع في الفكر البشري الذي مهما علا به الشأن فلا يخلو من خلل وعجز وقصور وتقصير؛ {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}، قال ابن السعدي في تفسير هذه الآية: «{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أي: في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، {لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر. فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.»⁽¹⁾

والقيم الإنسانية القرآنية حسنة من محاسن الدين الإسلامي، والتعريف بالقيم الإنسانية القرآنية تعريف بالإسلام الحنيف ودعوة إليه، ولذا كان الاشتغال بهذا المجال من أفضل الأعمال الصالحة «فمعرفة والبحث عنه والتفكير فيه وسلوك كل طريق يحصل على معرفته خير ما شغل العبد به نفسه»⁽²⁾ وفي الاشتغال ببيان محاسن الدين منافع عدة منها: كشف حقائق الدين أكبر داع إلى قبوله ورجحانه على غيره. وزيادة إيمان العبد بزيادة معرفة محاسنه وحقائقه. والتحدث بنعم الله على عباده. وإن في إشاعة القيم الإنسانية القرآنية حماية للمجتمع الإسلامي من الانسلاخ عن مثله ومبادئه وعقائده وشرائعه... وفي هذا المجال يقع على عاتق المختصين في الدراسات القرآنية تزويد الساحة الثقافية الإسلامية بمختلف صور القيم الإنسانية التي جاءت ضمناً في القرآن الكريم، ونشر هذه الصور في كل وسائل الدعوة والإعلام، وكذا عبر وسائل الوعظ المسجدي وغيره.

2.3.3 المطلب الثاني: مقام الضرورة العلمية.

العلوم الاجتماعية بشتى صنوفها اليوم تشهد ثراء في الكتابات وتنوعاً في الموضوعات المطروقة، وغالباً ما تكون الموضوعات المطروحة خاضعة للإيديولوجيات الفلسفية والعقدية التي ينتمي إليها الكاتب. ومن هنا يبرز مقام الضرورة العلمية لوجوب كتابة المسلمين في القيم الإنسانية من منظور القرآن الكريم الذي يبنى على واقع علمي معاش وواقع علمي مأمول، فأما الواقع المعاش فمتجسد في أن المؤلفات في القيم الإنسانية موجودة لكن يعثرها النقص، وهي «كافية لنلاحظ فيها فراغاً هائلاً وعميقاً نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني»⁽³⁾، وذلك الفراغ ناشئ لأجل الإضافة التي يمكن أن يقدمها القرآن الكريم في هذا المجال من العلوم الاجتماعية. لكن الأمة اليوم مقصورة في ميدان العلوم الاجتماعية في حين أن ميدان الفقه التشريعي وفرعياته ممتد يتخصص فيه العلماء وتنشأ له المؤسسات... والواجب اليوم هو التوجه نحو الابداع في علوم الاجتماع وإثراء المكتبات بمختلف وجهات النظر ذات المرجعية القرآنية.⁽⁴⁾ والواقع الآخر الذي يأمل المسلمون الوصول إليه من خلال كتاباتهم فتمثل في أنه ممكن -بل ضروري- إثراء مكتبة القيم بما ساهم فيه القرآن ابتداء وعلماء التفسير انتهاء من تصورات سامية راقية حول القيم ومفهومه وتطبيقاتها في الوجود، وهذا الثاني من الواقعين العلميين ينتظر من يبرزه للوجود في قوالب علمية تصلح لتكون مرآة للإسلام والمسلمين وهذا من

(1) عبد الرحمن السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، مرجع سابق، ص190.

(2) عبد الرحمن السعدي، "الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي"، دار الفرقان، الجزائر، 1439هـ-2018م، ص7.

(3) محمد عبد الله دراز، "دستور الأخلاق في القرآن الكريم"، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1418هـ-1998م، ص4.

(4) ينظر: محمد الغزالي، "كيف نتعامل مع القرآن"، نضمة مصر للطباعة والنشر، مصر، 2005م، ص91.

باب الانتصار للقرآن الكريم. ويشير العلامة محمد عبد الله دراز في ما يماثل ويقارب المجال الذي نحن فيه -علم الأخلاق-؛ أن هناك كتباً إنسانية محضة أجهد مؤلفوها أنفسهم فاستودعوها ثمرات تأملاتهم ودراساتهم الفلسفية ولم يظهر فيها النص القرآني كلية أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية.⁽¹⁾ والخلاصة أن الموجود هو بمثابة الأساس وإعداد مواد البناء، أما المفقود -ولو جزئياً- هو إعلاء صرح البناء. وهذا مع ملاحظة أن «هذه العلوم حديثة في الحضارة المعاصرة... فعلم النفس والاجتماع والاقتصاد علوم جاء تأصيلها من نتائج الحضارة الحديثة، كان لها أصول قديمة وهي واسعة عندنا لأن ديننا دين ودولة دين ومجتمع دين وأسرّة دين وحضارة... فالمعالم كلها عندنا لكن في السليم الذي اختلط فيه كل شيء...»⁽²⁾ وهذا الأمر قد تقمصه دعاة مدرسة المنار في مصر، ودعاة مدرسة الإصلاح في المغرب العربي، الذين جعلوا التفكير الديني المؤسس على القرآن وتفسيره أداة بعث لجوهر المجتمع الإسلامي. فأفادوا من طفرة علم الاجتماع والنفس والفلسفة والقانون...⁽³⁾ ويظهر هذا جلياً مؤصلاً له في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

هذا وإذا كانت مسميات كثير من مفردات القيم الإنسانية كالحرية والعدل والتسامح... تمثل مشتركاً حضارياً بين مختلف الشعوب والثقافات وذلك باعتبارها «معاني نبيلة اصطاحت المجتمعات الإنسانية قديماً على جعلها مقياساً لمدى سمو ورقي الأفراد والجماعات»⁽⁴⁾؛ إلا أن القيم الإنسانية اليوم أصبحت تتحكم فيها اتجاهات تفسيرية مختلفة بل في كثير من الأحيان متضاربة، مما يجعلنا نحكم أن القيم الإنسانية اليوم أصبحت على مفترق طرق، فاللادينيون لهم تفسيرات للقيم وأصحاب الديانات لهم تفسيرات أخرى... فنحن نعيش «صراع تفسيرات متعددة للقيم الإنسانية المشتركة... وتخضع تفسيرات القيم الإنسانية لموازين القوى الغالبة على حساب المغلوبة مهما كانت هذه التفسيرات»⁽⁵⁾، وكان من النتائج الحتمية لهذا الصراع هو ما يلاحظ من القيم أصبحت «تفقد من محتواها بحسب عوج التفسير الذي يفسرها به البعض»⁽⁶⁾، لذا كان لزاماً على الكتاب المسلمين أموراً منها:

- بيان موقف القرآن الكريم من التفسيرات الباطلة والمشوهة لكثير من القيم النبيلة التي عبث بها أيدي العابثين.
 - العمل على إظهار وبيان مدى هشاشة المعاني المشوهة للقيم التي يحاول البعض حمل الناس على الإيمان بها وأخذها هكذا مشوهة، والعمل على إشاعة المعاني الصحيحة والمنطقية للقيم.
 - بناء وحدة متكاملة من القيم الإنسانية وفق التصور القرآني الصحيح.
- وعلى صعيد آخر يمكن ملاحظة صراع آخر استعرت ناره في العصر الحاضر، لكن هذه المرة أبرمت ناره من داخل المجتمع المسلم ومن ينتمي إليه، ويتجلى هذا الصراع في التفسيرات الحداثيّة للقرآن الكريم معتمدين -في زعمهم- على أعمال المقاصد والمعاني وإهمال الألفاظ والمباني...

(1) ينظر: عبد الله دراز، "دستور الأخلاق"، مرجع سابق، ص 4 وما بعدها.

(2) محمد الغزالي، "كيف نتعامل مع القرآن؟"، مرجع سابق، ص 171.

(3) ينظر: عبد الله أكرزام، "الفكر المقاصدي في تفسير المنار"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1437هـ-2017م، ص 266.

(4) أشرف محمد زيدان، "واقع القيم الإنسانية ومستقبلها وفق حقائق القرآن الكريم"، سبق ذكره.

(5) المرجع نفسه.

(6) المرجع نفسه.

4. المبحث الثالث: القيم العليا التي جاء بها القرآن الكريم

تنوعت تقاسيم القيم في الأدبيات الفلسفية تبعاً لتنوع الاعتبارات المعتمدة في ذلك؛ إلا أن الكل مجمع على قدر من القيم تعتبر هي الأسمى والأرقى في جميع الفلسفات؛ بحيث لا يعترها نقد ولا يشوبها نقص عند أي أحد، وفي مقالات المسلمين حول القرآن الكريم لم نكد نجد من بحث في القيم العليا التي في القرآن الكريم بحثاً صريحاً، ولا من قصدها بالتأليف بحيث نص عليها نصاً قطعياً، سوى ما ألفه الدكتور وهبة الزحيلي من كتاب بعنوان "القيم الإنسانية في القرآن الكريم"؛ لكنني لم أظفر به لأطلع عليه؛ لعل فيه شيئاً من ذلك، وتجدد الإشارة إلى ما ألفه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي تحت عنوان: "المثل العليا في الإسلام"، فإن فيه شيئاً مما نحن بصدد معالجته، ولعل ما قصده الشيخ بالمثل العليا هو أحد نوعي القيم الإنسانية؛ فهذه الأخيرة إما أن تكون قيماً مثلى، أو أن تكون قيماً وجودية.⁽¹⁾

أما وإن الأمر كان كما هو؛ فإني تتبعت بعض ما كتب في مقاصد القرآن فبدأ لي -والله أعلم- أن قيم القرآن الكبرى التي تمثل الأصل الذي تنفرع عنها شجرة القيم الأخرى، وهو ما عبر عنه العلامة الطاهر بن عاشور بقوله -عن القرآن-: «المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية».⁽²⁾ وهذه العبارة قد جمعت ما تفرق في غيرها من مفردات القيم الإنسانية، وهي تتطابق نسبياً مع ما قرره محمد رشيد رضا في مقاصد القرآن حيث قال: «المقصد الثالث من مقاصد القرآن؛ إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام»⁽³⁾، وقال في بيان مقصد آخر: «الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني»⁽⁴⁾. والصلاح الذي رغب فيه القرآن في تضاعيفه جملة من القيم الإنسانية ودلالته عليها إما ضمناً أو لزوماً على ما سنبينه الآن:

1.4 المطلب الأول: القيم في مقصد صلاح الفرد

صلاح الفرد: مؤسس على إصلاح التفكير، وإصلاح المعتقد، وهو شبيه ويتلاءم إلى حد بعيد مع ما يعبر عنه في فلسفة القيم بنظرية الحق. فالقرآن الكريم من مقاصده «ترقية نوع الإنسان وبيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل».⁽⁵⁾ وهذا تكميل لفطرته الإنسانية ومعارفه العقلية، واختصار لما تضمنه القرآن من الحق في عقائده وشرائعه وأخلاقه وما يربي عليه الناس من العقلية العلمية في التفكير قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «"الحق" في ذاته وصفاته [يعني الله سبحانه وتعالى] ... فقله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق»⁽⁶⁾. ولا يخفى أن هذه القيمة المتمثلة في صلاح المعتقد قيمة تنجر معها عدة قيم أخرى مثل صلاح التفكير بإثارة داعي العلم

(1) إن فسرت "القيمة" بنسبتها إلى الصور الغائبة، المرتسمة على صفحات الذهن، كان تفسيرها مثاليًا، وإذا فسرت بأسباب طبيعية أو نفسية أو اجتماعية، كان تفسيرها وجوديًا. وخير تفسير للقيم ما جمع بين الاثنين، المعنى المثالي، والمعنى الطبيعي، إذ لا يمكن تصور أحد هذين المعنيين في القيمة، دون الآخر، ولولا ذلك، لما كان للقيمة وجود، ولا للوجود قيمة. [القيم الإسلامية، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات]

(2) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، مرجع سابق، ج1 ص38.

(3) محمد رشيد رضا، "الوحي المحمدي"، مرجع سابق، ص173.

(4) المرجع نفسه، ص187.

(5) عبد الله أكرزام، "الفكر المقاصدي في تفسير المنار"، مرجع سابق، ص248.

(6) عبد الرحمن السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، مرجع سابق، ص949.

العلم والحكمة وطلب الحجة والبرهان بحيث يصبح تفكير الانسان تفكيراً سوياً ينسجم مع طبيعته الفطرية والاجتماعية. ومن لوازم الحق واتباعه الابتعاد عن الخرافة بكل أشكالها مما لم يقر الله عليه دليلاً وليس لأهله فيه أثارة من علم أو بينة من وحي يوحى الله به لعباده وما يتبع ذلك كله من العوائد الباطلة والبدع المحدثه، ومن لوازم هذا أيضاً ما تعلق بقيمة: العدل فهو مرتبط بالحق دائر معه أينما دار؛ إذ أن حماية الحقيقة وإقامة الحق هو الركن المقصود من كل الشرائع.

والحق الذي جاء به القرآن الكريم شامل لكل موضوع فيه للقرآن إضافة من علوم الدين وعلوم الدنيا، ف«مع توسع علوم الطبيعة وتبحرها، وتوسع علوم الاجتماع والعمران لم يأت ولن يأتي علم صحيح يناقض ما جاء به القرآن؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد عالم الغيب والشهادة، علوم الخلائق كلهم من علمه وتعليمه قال تعالى: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [سورة العلق:5]». ⁽¹⁾ ومن العلوم المعبرة عن قيم الحق في القرآن الكريم علوم الدين، أو لنقل إن من فروع قيم الحق في الإسلام قيم الدين بما يشمل كل العلوم الدينية، وعلى رأسها إثبات الوحي الذي هو واسطة بين السماء والأرض فقد أطنب محمد رشيد رضا في بيان حقيقة الوحي الحمدي وإبطال الشبه التي أراد بها غير واحد التلبس والتعمية على هذه الحقيقة بها، وبين ما في القرآن من الصلاح المطلق لكل زمان ومكان. ومن كمال بلاغة القرآن وحسن تعليمه للناس ما جهلوه من الحقائق النافعة أنه بين الحق في كل شيء وبين -مع ذلك- السبيل الموصل إلى الحق -زيادة في بيان المحجة وإقامة الحجة على من كابر وعاند- كما قال تعالى: {وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} [سورة الأحزاب:4]. «والسبيل هي الأدلة العقلية والنقلية الموصلة إلى الحق، فهذه الدلائل وتلك المسائل والعلوم الصحيحة كلها ترجع إلى هذين الأمرين: مسائل ودلائل» ⁽²⁾. لا يتوقف القرآن الكريم عن بيان الحق والكشف عنه فقط بل يتعداه ليثمر في الفرد والمجتمع قيماً أخرى منها: ⁽³⁾ أن عقائده تملأ القلوب إيماناً و يقيناً وطمأنينة، وتوجيهاته فيها صلاح الدين والدنيا وصلاح الأخلاق وصلاح الأعمال بل وصلاح الأبدان والعقول، ونواحيه وزواجره فيها الحمية عن كل مؤذ في النفس والعقل والبدن، فهو يوجه إلى كل خير وينهى عن كل شر.

ومن القيم العليا التي سعى المفسرون إلى إبرازها وتوضيح دور القرآن الكريم في تجسيدها هي قيم الحرية، فقد حد الإسلام من أسباب استرقاق البشر وحث على تشريع ما يتم به تحرير البشر من رق العبودية إلى أن تم القضاء على نظام الرق في الإسلام، « فأمر المسلم بعق أخيه المسلم، ورغبه في ذلك غاية الترغيب، وفتح للعتق أبواباً كثيرة كإيجابه في الكفارات، وكأمره بالكتابة والحكم بسرارية العتق. ونحو ذلك: قال تعالى: {وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ} [النساء: 92]، وقال تعالى: {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} [المائدة: 89]، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} [المجادلة: 3]. وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} [النور: 33]». ⁽⁴⁾

(1) عبد الرحمن السعدي، "معجزات القرآن المشاهدة للعيان/ مجموع مؤلفات السعدي"، مرجع سابق، ج3 ص619.

(2) المرجع نفسه، ج3 ص619.

(3) المرجع نفسه، ج3 ص617-619.

(4) محمد الأمين الشنقيطي، "حول شبهة الرقيق" - ضمن «محاضرات الشنقيطي»، مرجع سبق ذكره، ص188.

ومن الخصائص المعتمدة في القيم القرآنية هي الوسطية والاعتدال في الأمور كلها سواء منها الاعتقادية أو التعبدية أو التشريعية، «القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال وذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد في كل الأمور؛ قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: ٩٠] وقال: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف: ٢٩] والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة»^(١) فمن الوسطية في الاعتقاد الحق نبذ الغلو في الصالحين إلى درجة إلحاق صفات الألوهية والربوبية بهم قال الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة النساء: 171]. {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [سورة المائدة: 77]. ولا شك أن غلوا في الدين من هذا القبيل حقيق بأن يجعل كثيرا من شعائر الدين محض خرافة يصدق عليها قول القائل -الدين أفيون الشعوب- وهذا ليس لكل دين وإنما الدين الحق هو حياة الأمم والشعوب. وعدد بعض أهل العلم مظاهر الوسطية في القرآن الكريم في جميع الجوانب التعبدية والتشريعية فقال: ^(٢) ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما كان عليه النبي . صلى الله عليه وسلم . في آيات كثيرة ونهى عن مجاوزة ذلك، وتعدي الحدود وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة. ... وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهى عن الجبن، وذم الجبناء وأهل الخور وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة. ... وأمر وحث على الصبر في آيات كثيرة، ونهى عن الجزع والهلع والتسخط، كما نهى عن التجبر والقسوة وعدم الرحمة في آيات كثيرة. ... وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين والأقارب والأصحاب ونحوهم والإحسان إليهم قولاً وفعلاً، وذم من قصر في حقهم أو أساء إليهم قولاً وفعلاً، كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله وطاعتهم على طاعة الله. ... وأمرنا بالاعتصام في الأكل والشرب واللباس، ونهى عن السرف والترف، كما نهى عن التقصير الضار بالقلب والبدن.

2.4 المطلب الثاني: القيم في مقصد صلاح المجتمع.

صلاح المجتمع: منوط بما تتضمنه تشريعات القرآن الكريم من عدل ومساواة تضمننا استقرار المجتمع، «ومعلوم أن المصالح التي يدور حولها التشريع السماوي ثلاث وهي: درء المفاسد، المعبر عنه في الأصول بالضروريات. وجلب المصالح، المعبر عنه في الأصول بالحاجيات. والجري على مكارم الأخلاق وأحسن العادات، المعبر عنه في الأصول بالتحسينات والتتميمات. ومعلوم أن الضروريات ست، وهي: دفع الضر عن الدين، وعن النفس، وعن العقل، وعن النسب، وعن العرض، وعن المال»^(٣). وهذا تصوير للقيم الإسلامية التشريعية يفوق ما يصور به الفلاسفة القيم عندهم فملحظ هنا وهو أن الجميع يتمتع بحقوقه وحماية لأفراده من كل العوارض التي تفسد عليهم أديانهم وأبدانهم وأوطانهم ومجتمعاتهم. بل يزيدون في العلو في مراتب الاحسان والتعاون فيما بين أفراد المجتمع.

(1) عبد الرحمن السعدي، "القواعد الحسان لتفسير القرآن"، مكتبة الرشد، الرياض، 1420 هـ - 1999 م، ط1، ص72.

(2) عبد الرحمن السعدي، القواعد الحسان لتفسير القرآن، مرجع سابق، ص73.

(3) محمد الأمين الشنقيطي، "المثل العليا في الإسلام/ آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي"، مرجع سبق ذكره، ج11 ص130.

ولا بأس هنا بذكر بعض الأسس القيمية التي جعلها القرآن الكريم ركائز يستقر بها الناس في معاشهم مع بعضهم وقواعد تنظم المجتمعات الإنسانية؛ فمنها العدل «وقد عني القرآن بتقرير العدل بالأمر به ومداح المتصفين به والنهي عن الظلم وذم مرتكبيه في أكثر من ثلاثمائة وخمسين آية»⁽¹⁾ ومن جملة تلك الآيات التي تلزم الحاكم أو من بيده سلطة القضاء العدل في الأمر كله مع الموافق والمخالف ومع اللعدو والصديق قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [سورة المائدة: 8]، ومن الأسس القيمية التي جاء بها القرآن الكريم في إطار بناء مجتمع يسوده الوئام والاتلاف قيمة الحرية ... ولم يفت المفسرين الدفاع عن القرآن الكريم وشرائعه ونظمه فيما قد يشوش به المرجفون على صيانة القرآن لحرية الانسان بمثل قضية الرق وكيف تعامل معها الإسلام؟ ، بجملة من البحوث في التفاسير والرسائل المنفردة بما يطول ذكره مفصلاً هنا.⁽²⁾ وأهم من القاعدة السابقة في قاعدة أخرى وهي أولى وأحرى في معاملات الناس فيما بينهم ف «العدل هو الحد الأدنى في بناء علاقة المسلم بغيره، ولكن الإسلام يدعو المسلم إلى درجات أسمى، فإن كان العدل يعني المعاملة بالمثل فالمسلم مدعو إلى العفو والبر والإحسان.»⁽³⁾ وهذا التعامل بالتي هي أحسن منهج شائع في كل الأحوال ومع سائر الأشخاص مما يضمن حقوقاً للإنسانية في كل الظروف، قال الله تعالى: {تُخِذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف: 199]. وقال تعالى في شأن الكفار المسلمين: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [سورة الممتحنة: 8]. وقال تعالى في المحاربين: {وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة الأنفال: 61]. كما أن العدل يتجلى في مقاصد القرآن الجزئية المتعلقة بالعقوبة، «فمن مقاصد العقوبة العامة العدل، والمراد به هنا تحقيق العموم والتكافؤ من توقيعها في حياة الناس؛ أما العموم فمعناه إيقاع العقوب على كل من باشر الجريمة دون عفو أو شفاعة ... وأما التكافؤ فمعناه التناسب بين الجريمة والعقوبة ...»⁽⁴⁾

3.4 المطلب الثالث: القيم في مقصد صلاح العمران.

صلاح العمران مقصود به إلى حد بعيد ما يعبر عنه في فلسفة القيم بالتسامح و السلم بين دول ومجتمعات وأفراد كل المعمورة الإنسانية والله تعالى يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء: 107]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [سورة الحجرات: 13]. وقد «صاح الإسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الإنسانية العامة، الجامعة، وفرضها عليهم، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمة عليهم، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية وبيان أصول الكتاب الإلهي وسنة خاتم النبيين في الجامعة الإنسانية.»⁽⁵⁾ وقد

(1) صالح الحصين، "التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب"، المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات، المدينة المنورة، 1435هـ، ط1، ص208.

(2) ينظر مثلاً: محمد الأمين الشنقيطي، "محاضرة حول شبهة الرق/ آثار العلامة محمد الأمين الشنقيطي"، ت: علي العمران، إشراف: بكر أبو زيد، دار ابن حزم، 1441هـ-2019م، ط1، ج11 ص181.

(3) صالح الحصين، "التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب"، ص208.

(4) عبد الكريم الحامدي، "مقاصد القرآن من تشريع الأحكام"، مرجع سابق، ص492-493.

(5) محمد رشيد رضا، "الوحي المحمدي"، مرجع سابق، ص187.

وضح محمد رشيد رضا كثيرا من الأصول التي سطرها القرآن الكريم من أجل الوصول إلى هذه الغاية النبيلة منها الوحدات الثمان⁽¹⁾: وحدة الأمة التي خاطب الله بها أنبياءه فقال: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء: 92]. والوحدة الإنسانية كما بينها القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [سورة الحجرات: 13]. ووحدة الدين {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي} [سورة الأعراف: 158].... وغيرها من أنواع التوحيد لأجناس البشر من وحدة اللغة ووحدة التشريع ووحدة الجنسية السياسية... وهذه كلها لا يخفى ما فيها من دعوة إلى التآلف بالعارف وإلى ترك التعادي بالتخالف. ونشر لمبدأ التعايش السلمي الذي هو من أعلى القيم وأرقاها.

وما سبق بيانه لا يمنع من امتثال أوامر الله بحبانه وتعالى بإعداد القوة التي تجعل بلدان المسلمين تفاوض على مصالح من جانب فيه عزة وأنفة وتمنع الظلم والبغي عليها من أي عادية تعدو عليهم وهو ما عبر عنه محمد الأمين الشنقيطي بقوله أحوال السياسة الخارجية.⁽²⁾ ولخصهما في أصليين وأمور تتبعهما، أما أول الأصليين فهو ما جاء صريحا في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [سورة الأنفال: 60]. وتظهر قيمة هذا الأصل في الحفاظ على بيضة المجتمع ومصلحه من السطو عليهما أو تعكير صفوهما، والثاني من الأصليين هو الأمر بالإجتماع ونبد الفرقة والاختلاف كما في قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [سورة آل عمران: 103]. وتظهر قيمة هذا الأصل واضحة جلية في قوله تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال: 46]. وما يتبع ذلك هو وجوب رعاية عقود الصلح والهدنة والمعاهدات مع الغير كما قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة: 4]. ومع ما يجب من لازم أمر أخذ الحيطة والحذر كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خذُوا حِذْرَكُمْ} [سورة النساء: 71].

5. خاتمة:

الحق أن موضوع القيم الإنسانية من منظور القرآن الكريم ومقارنته بالواقع الاجتماعي الذي عليه الأمة الإسلامية يحتاج دراسات عميقة في هذا المجال. وحسبي هنا الإشارة إلى ذلك الموضوع لعل في الإشارة تذكيرا للناسي وتنبيها للغافل وتحفيزا للمتردد من أجل ولوج حلبة هذا الجدل الفكري. ولا يفوتني أن أذكر بأهم النتائج التي استخلصتها من خلال معالجي هذا البحث، وأنوه ببعض التوصايا العلمية عليها تكون مفاتيح علمية لأبحاث ودراسات مستقبلية.

أولا: أهم النتائج.

- القيم جزء من مفردات القرآن الكريم لها دلالات متنوعة فيه، كما أن موضوع القيم جزء من محاور القرآن الكريم العامة.
- يمثل القرآن الكريم الركيزة في البناء القيمي الانساني لاستئناف الحياة الرشيدة.
- تعتبر دراسة القيم القرآنية ضرورة علمية لتصحيح التفسيرات المنحرفة للقيم التي تسود الفلسفات الغربية وغيرها.

(1) ينظر: محمد رشيد رضا، "الوحي المحمدي"، مرجع سابق، ص 187 وما بعدها.

(2) ينظر: محمد الأمين الشنقيطي، "محاضرة الإسلام دين كامل/ آثار العلامة محمد الأمين الشنقيطي"، مرجع سبق ذكره، ج 11 ص 19-20.

- تجسدت القيم القرآنية في كتابات المعاصرين على أشكال مختلفة من بيان لمحاسن الدين إلى دفع للشبهات عنه وبيان لمقاصد القرآن الكريم وما حوته من معان نبيلة.

ثانياً: التوصيات.

دراسة القيم العليا الانسانية كل على حدى وذلك من منظور قرآني بحث ببيان المفاهيم وذكر البراهين ودراسة التفاصيل ودفع الاعتراضات وبيان المشتبهات.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

6. قائمة المراجع:

- ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان، 1399هـ - 1979م.
- أشرف محمد زيدان، "واقع القيم الإنسانية ومستقبلها وفق حقائق القرآن الكريم"، مجلة الجامعة العراقية، العدد: 3، المجلد 28، السنة: 2012م، رابط النسخة الالكترونية (موقع المجلة):
<https://www.iasj.net/iasj?func=fulltext&aId=96338>
- البليش وآخرون، "القاموس الجديد"، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر، 1979م.
- جميل صليبا، "المعجم الفلسفي"، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1982م.
- رونثال وآخرون، "الموسوعة الفلسفية"، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للنشر والتوزيع، لبنان.
- سليمان الرحيلي، "الطريق القاصد إلى علم المقاصد"، دار الميراث النبوي، الجزائر، 1437هـ - 2016م.
- سليمان القرعاوي، "الموسوعة القرآنية في الوجوه والنظائر"، مكتبة الجديدي، المملكة العربية السعودية، ط1.
- الشافعي، "الرسالة"، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، مكتبة عباد الرحمن، مصر، 1435هـ - 2015م، ط1.
- صالح الحصين، "التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب"، المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات، المدينة المنورة، 1435هـ، ط1.
- الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1984م.
- عبد الرحمن السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، ت: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420هـ - 2000م.
- عبد الرحمن السعدي، "الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي"، دار الفرقان، الجزائر، 1439هـ - 2018م.
- عبد الرحمن السعدي، "الدلائل القرآنية / مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي"، الميمان للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، 1432هـ - 2011م، ط1.
- عبد الرحمن السعدي، "القواعد الحسان لتفسير القرآن"، مكتبة الرشد، الرياض، 1420 هـ - 1999 م، ط1.
- عبد العظيم الزرقاني، "مناهل العرفان"، دار الحديث، مصر، 1438هـ - 2017م.
- عبد الله أكرزام، "الفكر المقاصدي في تفسير المنار"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1437هـ - 2017م.

- عبد الكريم حامدي، "مقاصد القرآن من تشريع آيات الأحكام"، دار ابن حزم، لبنان، 1429هـ-2008م، ط1.
- الربيع ميمون، "نظرية القيم في الفكر المعاصر"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.
- مجلة السنة المحمدية، العدد: 05، يوم 08 ماي 1933م.
- محمد الأمين الشنقيطي، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 1415هـ-1995م، ج3 ص22 وما بعدها.
- محمد الأمين الشنقيطي، "محاضرة حول شبهة الرق/ آثار العلامة محمد الأمين الشنقيطي"، ت: علي العمران، إشراف: بكر أبو زيد، دار ابن حزم، 1441هـ-2019م، ط1.
- محمد البشير الإبراهيمي، "الآثار"، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1997م.
- محمد الصالح صديق، "مقاصد القرآن"، دار البعث، قسنطينة-الجزائر، 1403هـ-1982م.
- محمد الغزالي، "كيف نتعامل مع القرآن"، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، 2005م.
- محمد رشيد رضا، "الوحي المحمدي"، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1426هـ-2005م.
- محمد رشيد رضا، "تفسير المنار"، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1990م.
- محمد عبد الله دراز، "دستور الأخلاق في القرآن الكريم"، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1418هـ-1998م.
- فردينان توتل، "المنجد في الأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، دت، ط17.